تجليات أسطورة الطوطم في رواية نزيف الحجر لابراهيم الكوني

-الودّان أنموذجا

La légende du Totem
Le symbole de la Légende du Totem dans le roman d'Ibrahim AL-KONI
"Le Saignement de la pierre" –le moulfon Type-

The Totem Legend symbol in Ibrahim AL-KONI's novel "The Bleeding of the Stone" -AL Ouaddan type-

أ. مرزاقة زياني
جامعة الجزائر 2

الملخص:

لقد تجلت روايات إبراهيم الكوني لوحات فنية تتجاذبها أنساق معرفية متعددة يتداخل فيها الحلم بالواقع والحاضر بالغائب والإنس بالجن والخفاء والظلمة بالنور،الأسطوري بالواقعي ، السحري و التاريخي ، الفلسفي و النفسي ...و من هنا كان سعينا في هذه الورقة البحثية إلى مناقشة إحدى أهمّ خصوصيات أدب إبراهيم الكوني؛ وهي المنحى الطوطمي في مدوّناته التى يبسط فيها عالما صحراويا يكاد يكون أسطوريا تصل فيه العلاقة بين الإنسان والحيوان إلى أعلى درجات التواصل ، التناغم ، التماهي، الحُلول ... ليصبح الحيوان محلّ تقديس وتبجيل من طرف الإنسان الصحراوي؛ حيث تصل هذه القداسة والتبجيل إلى درجة أن يتبوّأ الحيوان مكانة الطوطم المقدّس في القبيلة الصحراوية، يمارس سلطانه وشعائره عليها منذ فجر التاريخ .

عالج الكوني من خلال مرويّاته هذا المبحث الهام من مباحث علم النفس؛ألا و هو " الطوطمية " وربما تفرّد الكوني باهتمامه بجانب هام من ميثولوجيا الطوارق الذين يعتقدون في أخوة الإنسان مع الحيوان و النبات ، ومن ثم حرّم ناموسهم "آنهي" قتل الحيوان ،و جرّم قتل الأنثى الحامل منه على وجه الخصوص ، و ما إلى ذلك من قطع الشجر أو كسر بيض طير، ومن خالف ذلك حلّت عليه اللعنة وانتهى إلى مصير فاجع ، فما هي الطوطمية ؟ وكيف استفاد منها الكوني؟ و ما دور الودّان–باعتباره الطوطم الأكثر حضورا في أعماله - في الميثولوجيا الطوارقية ؟وهل يقصد الطوطم كمعتقد وطقوس أم كرمز وأيقونة للطبيعة الصحراوية ؟ وما هي جماليات توظيف هذا النموذج البدئي على المستوى الفني و الإيديولوجي؟

ملخص اللغة الفرنسية :

Résumé :

Les romans d'Ibrahim AL-KONI comprennent multiples tableaux artistiques sous différentesformes de connaissance, la ouinterfère laréalité et le rêve, l'obscurité et la lumière, l'absent et le présent, l'Homme et le Jinn, le réel et le mythe, l'historique et le magique, le philosophique et le psychologique…

Par conséquent, notreétudecherche à débattre sur l'une des caractéristiques les plus importantes de la littératured'Ibrahim AL-KONI qui estl'aspecttotémique

danssesœuvres, ouilprésente un monde saharien quasi mythique, dans le quel la relation entre l'homme et l'animalpeutatteindre les plus hautsdegrésd'harmonie, de communication et de solution, dontl'animaldevient un lieu de vénération par le saharien .

Cettesainteté et vénérationpeuventatteindre un tell point que l'animalprend la place du totem sacré de la tribusaharienne, exerçantsa domination et sesrituelsdepuis la nuit des temps.

Par sesrécits AL-KONI à traitél'une des importantesétudespsychologique, qui est "le Totémisme ". Il se peutqu'AL-KONI soitsingularisé pour son intérêtenvers un aspect important de la mythologieTouareg qui croiten la fraternité entre l'homme, l'animal et les plantes. De la leurcharte "ANHI" interdit de tuer les animaux, incrimineparticulièrement le meurtred'unefemelle enceinte etce qui s'en suit commeabattre les arbresoucasser les œufs de oiseaux. Unemalédictions'abattra sur celui

qui ne respecte pas cettechartesubissantun sort tragique .

Alors, qu'estce que c'estque letotémisme? Et comment AL-KONI à bénéficier de lui ?Quelest le rôle du moulfon vu qu'ilest le totem le plus utilisédanssesœuvres et dans la mythologieTouareg ? La référence au totem estelleentant que croyance et rites ouentant que symbole et qu'icône de la nature saharienne? Etquelleestl'esthétique de l'emploi de cetexempleprimaire sur les plans technique et idéologique ?

Summary:

Ibrahim AL-KONI's novels contain multiple artistic figures with different fields of knowledge, where interference is made between dream and reality, darkness and light, present and absent, Men and Jin, real and myth, historic and magic, philosophical and psychological...

Indeed, our study seeks to debate on one of the most important characteristic of Ibrahim AL-KONI's literature that is the totemic aspect.

In his works, he presents a quasi-mythical Saharan world, in which the relationship between man and animal can reach the highest degrees of harmony, communication and solution and in which the animal becomes venerated by the Saharan

This holiness and veneration can reach such a higher level that the animal takes the sacred totem's place at the Saharan tribe, dominating and practicing its rituals since the down of time.

Through his stories AL-KONI have dealt with one of the most important psychological studies that is "Totemism". AL-KONI might be singularized for his interest towards an important aspect of the Touareg mythology that believes in the brotherhood between men, animal and plants. In addition to that their "ANHI" charter prohibits the killing of animals, particularly incriminates the murder of a pregnant female and what follows such as cutting down trees, or breaking birds' eggs. Who violates this charter will be cursed and will have a tragic fate.

However, what is Totemism ? How does AL-KONI benefit from it? And what is

"El Ouaddan's"- role especially as being the most used totem in his works- and in the Touareg mythology? Does he refer to the totem as being a belief and ritual or as a symbol and icon of Saharan nature? And what is the aesthetics use of this primary example at the technical and ideological levels?

- رواية نزيف الحجر :

في رائعته "نزيف الحجر" يسرد الكوني قصتين محوريتن بالتوازي موزّعة على اثني عشـرة مقطعـا ؛ قصـة أسوف الشاب الطوارقي المسلم، و قصة "قابيل" -الذى ظنّ أنّه مسيحي- المتعطش للدم ، فأسوف يعيش مع والديه فـي "مساك صطفت" يرعى الغنم ويعيش في بيئة معزولة تماما عن المجتمع الخارجي ،فكان والـده يلقّنـه مبـادئ الـدين الإسلامي و أساسيات التعامل مع الصحراء ، وينمّي فيه حب العزلة و اعتزال الناس ، فكان يروي له القصصقصـص الأجداد ، والأساطير و قصص الجنّ « و من القصص التى تركت في نفس أسوف أثرا بالغا ، بل حدّدت رؤيته للحيـاة أنّ الودان عصيّ على الاصطياد ، فهو روح الجبال ويخبره والده أنّه اقتفى أثره ذات مرّة ، و حاصـره فـي منطقـة يصعب تجاوزها ، و عندما صوّب بندقيته نحوه لم يصدّق أنّ الودّان آثر الانتحار على القتل بالبندقية، فرمى نفسه مـن أعلى الصخرة »[1]،

و في المقطع الذى عنونه الكوني ب"البُنَيَّة" يروي تجربة أسوف القاسية مع الودّان ، « بعد غيـاب الأب تـولّى المسؤولية ، يرعى الأغنام ، و يتفقّد الجمال في الأودية المجاورة ،و يجلب الحطب ، و يذهب إلـى طريـق القوافـل ليقايض الماعز مقابل أكياس الشعير و التمر ، لم تكن المقايضة أمرا سهلا لشاب لا يملك لغة يخاطب بهـا النـاس ، لا يعرف طباع الناس و لا أخلاقهم و لا تصرفاتهم ، و من أين له أن يعرف و قد عاش طوال عمره معزولا عنهم ، بعيدا ، خائفا منهم ، يرعبه العجز و يخيفه كلّما فكّر – مجرّد التفكير - في الاقتراب منهم»[2] ، و هنا يفـتح الكـوني هامشـا تساؤليا يطرح من خلالها أسئلة جوهرية و وجودية تتعلق بالأنا ، و الآخر ، والخوف من الآخر ، هذا الآخر المتعـدد ، العزلة ، الهوية ....

فمع قدوم قابيل آدم ، و مسعود الدبّاش إلى الصحراء حدثت أوّل اصدام مع هذا الآخر؛ هذا الآخر المـتعطش

للدم و القتل ، « و لكي يُشبع قابيل شهوته لأكل اللحم يصبح صيّادا محترفا ، و يصبح لإلحاحه على صيد الحيوانات بُعدا جنونيا شيطانيا ، و قد ساعده "جون باركر" باستغلال التكنولوجيا الحديثة عندما قدمت شركات النفط و الشركات الأميريكية إلى الصحراء فحقّق رغبته المجنونة في أكل اللحم ، و أصبح يستخدم بندقية حديثة بدلا من بندقيته العثمانية إضافة إلى سيارة اللاندروفر ؛ و بذلك استطاع أن يصيد قطيعا في يوم واحد من الغزلان ...و لكنّ قابيل لا يفكّر كثيرا في الإخلال بقوانين الطبيعة ، ما يهمّه هو أن يصطاد أكبر عددممكن من الغزلان ليطفئ لهيب أسنانه ويُسكت جوفه، و يبيع الباقي إلى المعسكر الأمريكي»[3]، وبعد أن أباد قابيل كل قطعان الغزلان ، اشتد جنونه و رغبته في أكل لحم الودّان ، اللّحم الأسطوري،و أرغم أسوف على أن يكون دليله للعثور على قطعان الودّان ، و أمام رفض أسوف يشتد جنون قابيل و يستعير غيضا و جنونا ، يربط أسوف على الصخرة العظيمة « وقف قابيل تحت قدميّ أسوف المعلّق في الجدار الصخري ، رأسه يتدلّى على صدره ، وجهه ذابل ، ابيضت شفتاه و تشقّقتا بالعطش و القبلي ، جسده محشو في جوف الصخرة ، يتحّد بجسد الودّان ، قرنا الودّان يلتويان حول رقبته كالأفعى ، مازالت يد الكاهن المقنّع تلامس منكبه كأنّها تبارك الطقوس الخفية ...ثمّ انحنى فوق رأس الراعي المعلّق أمسك به من لحيته ، و جرَّ على رقبته السكّين بحركة خبيرة ؛ خبرة من ذبح كل قطعان الغزلان في الحمادة الحمراء ، لم يصرخ أسوف و لم يعترض ، ولكنّ مسعودا هو الذى صرخ ، فتردد صدى الصّرخة في القمم المجاورة ...ألقى القاتل بالرأس فوق لوح من الحجر في واجهة الصخرة ، فتحرّكت شفتا أسوف وتمتم الرأس المقطوع المفصول عن الرّقبة :

- لا يشبع ابن آد إلاّ التراب!

تقاطرت خيوط الدّم على اللوح الحجري ، فوق اللوح المدفون إلى نصفه في التراب كتب بالتيفيناغ الغامضة التى تشبه رموز تعاويذ السحرة في "كانو" عبارة :

" أنا الكاهن الأكبر متخندوش أُنبّئ الأجيال أنّ الخلاص سيجئ عندما ينزف الودّان المقدّس و يسيل الدم في الحجر ، تولد المعجزة التى تغسل اللعنة ، تتطهّر الأرض و يغمرُ الصحراءَ الطوفانُ"»[4].

فرواية نزيف الحجر إذن تصوّر الصراع الأزلي بين بني البشر، فتستدعي أسطورة الإخوة الأعداء و كأنّ ابراهيم الكوني هنا يندّد بذلك الاعتداء السافر على الطبيعة الصحراوية وعلى مقدّراتها من حيوان و نفط ، و يدعونا للرجوع لذلك الزّمن البدئي القديم حيث صفاء الأسطورة و نقاؤها .

مفهوم الطوطمية :"Le totémisme"

تعددت آراء الباحثين في تحديد ماهية الطوطمية في جوهرها ، هل هي دين ؟ هل هي معتقد ؟ هل هي مجرد طقوس ؟ و لعلّ من أبسط الآراء في هذا الباب التيار القائل بأن الطوطمية « يراد بها كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، و يعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوطمه ، وقد يكون الطوطم حيوانا أو نباتا و هو يحمي صاحبه ويبعث إليه الأحلام السعيدة ، وصاحبه يحترمه ويُقدّسه ، فإذا كان حيوانا لا يُقدَم على قتله أو نباتا فلا يقطعه ولا يأكله إلا في الأزمة الشديدة »[5]

و قدعرّف جيمس فريزرالطوطم في« كتابه "الطوطمية والزواج " بأنهمجموعة من الأشياء المادية التي يحترمها البدائيون ويعتقدون بوجود علاقة خاصة لهم بتلك الأشياء ، ونوضح أن الطوطم يختلف عن الوثن بكونه يعني نوعا وليس شيئا محددا بعينه أي عندما يكون الغراب هو الطوطم فالمقصود هو نوع الغراب بكامله وليس غرابا معينا»[6].

« فمن الوُجهة الدينية يُسمي أفراد القبيلة أنفسهم بأسماء الطوطم ، ويعتقدون أنه أب القبيلة ،و أنّهم من نسله ، فمن قبائل إيريكو(Iroquois) من هنود أمريكا قبيلة تُعرَف بقبيلة السلحفاة ، و أخرى تعُرَف بقبيلة الذئب والدب ، وهم يعتقدون أنهم من نسل الذئب و الدب ...فكل هذه الحيوانات تُحترَم وتُقدّس، وكانت كل قبيلة لا تُؤذي طوطمها ولا تقتله ولا تأكله ...وإذا مات حيوان من نوع طوطم القبيلة احتفل أهلها بدفنه وحزنوا عليه حُزنَهم على واحد منهم ، كما

يعتقدون أنّ من أهان الطوطم أو أساء إليه يُصاب بالمصائب والنكبات ، كما يتوهّم أصحاب الطوطم. »[7].

لقد أولى سيجموند فرويد في نظرية التحليل النفسي الأسطورة أهميةً بالغةً في دعمها للنظام الاجتماعي، حيث يقول في كتابه الطوطم والتابو :« ولكن أكثر ما اجتذبني الطوطمية ؛ أوّل أساليب النظام الاجتماعي في القبائل البدائية ، أسلوب اتحّدت فيه بدايات النظام الاجتماعي بدين ساذج و سيطرة صارمة لعدد ضئيل من نواهي التابو ، في ذلك النظام الكائن المقدس هو دائما أبدا حيوان ، تدّعي القبيلة انّها انحدرت منه».[8]

و بذلك يقدّم لنا فرويد تصوّرا لأسطورة الطوطم في هذا الكتاب فيقول: « أنّ الناس كانوا يعيشون في الأصل قبائلا ، كل منها تحت سيطرة رجل واحد ، قوي ، عنيف ،غيور، حيث كان أب القبيلة طاغية لاحد لسلطانه ، قد استولى لنفسه على جميع النساء ، وحيث انّ أولاده كانوا غرماء خطر عليه ، فقد قتلهم أو نفاهم ، بيد أنّ الأبناء قد تجمعوا و ائتمروا على أن يقهروا أباهم ، و يغتالوه ثم يفترسوه ، أباهم الذى كان لهم مثلا أعلى و عدوا في نفس الوقت، وبعد أن تمّ لهم ما أرادوا دبّ الخلاف بينهم فعجزوا على الاضطلاع بما ورثوا ، و لكنهم استطاعوا تحت تأثير الاخفاق و الندم أن يُصلحوا ذات بينهم و ينتظموا في قبيلة من الإخوة مستعينين بقوانين الطوطمية التى تهدف إلى تجنب تكرار مثل هذه الفعلة ، نستنتج من هذا المفهوم أنّ الطوطمية تركيب من الأفكار والرموز والطقوس تعتقدها جماعة ما ، و تربطها روحيا علاقة خفية عميقة و موضوع طبيعي هو طوطمها ؛ والذى يمكن أن يكون حيواناً أو نباتاً أو ظاهرةً طبيعية.»[9]

أي أنّ الطوطمية حسب وجهة نظر فرويد « هي ديانة عبادة الأب القوي المستحوذ على كل شيء ، فقد كان الذكر القوي الشديد البأس سيد العشيرة ووالدها ، يحوز ما يحلو له بفضاضة وشراسة وسلطانه لا يحده حد ، أما الأبناء فقد كانوا يقتلون أو يخصون أو يطردون من العشيرة إذا ما أثاروا غيرة الأب ، وكانو يجدون أنفسهم مكرهين على العيش في جماعات صغيرة ولا يعرفون سبيلا لاقتناء النساء وحيازتهن غير الخطف والسبي،ويضيف فرويد إنّالأشقّاء المطرودين والمتجمعين في جماعات تعاضدوا على قهروالدهم والتخلص من جبروته ومن ثم افتراسه»[10]

فالطوطمية تُعَدُّ إذن « مظهرا من مظاهر "أسطورة التكوين"، حيث يجسد تقديس الإنسان لحيوان بعينه أو لنبات، أو لكائن غيبي،يجعله محل عبادة، وتبجلهكالآلهة ويعد الطوطم من خلال هذا المذهب مظهرا من مظاهر تجسيد الألوهية والتقديس وأصلا لفرع؛ هو القبيلة أو العشيرة (أي الفرد)»[11]

هذا ، وقد فصّل فرويد «عرضا لـ س.ريناخ الذى لخّص في عام 1900م الشريعة الطوطمية في اثني عشرة مادة مقدّما إياها كانجيل للدين الطوطمي:

1 – لا يجوز قتل أو أكل حيوانات معينة ، إنما يربي الناس نوعا من هذه الحيوانات و يعتنون بها .

2 – إذا صدف و أن مات واحد من هذه الحيوانات ، يُقام عليه الحداد ، و يدفن بنفس المراسم التى تُقام لفرد من القبيلة العينة .

3 –قد يسري حظر الأكل على جزء معين فقط من لحم الحيوان.

4 – إذا تحتّم على البدائي بحكم الضرورة أن يقتل الحيوان الملحمي ، فعليه أن يستغفر منه و أن يُحاول التخفيف من جرم إنتهاك التابو من جريمة القتل بتعاويذ وشعوذات متنوعة .

5 – إذا ضُحِّيَ بالحيوان بمقتضى الشرائع البدائية ، يجري البُكاء عليه بشكل إحتفالي .

6 – يرتدي الناس في بعض المناسبات الإحتفالية في الطقوس الدينية جلد حيوانات معينة وحيثما تكون الطوطمية مازالت قائمة تكون هذه الجلود لحيوانات الطوطمية.

7 – يسمي القبائل و الأشخاص أنفسهم بأسماء الحيوانات ، و بالتحديد باسم حيواناتهم الطوطم .

8 - يسمى القبائل و الأشخاص أنفسهم بأسماء الحيوانات و بالتحديد أسماء حيوانات الطوطم .

9 – تستخدم قبائل كثيرة صور الحيوانات رايات لها و تنقش بها أسلحتها ، كما يرسم الرحّل صور الحيوانـــات علـــى جسدهم أو يوشمون بها جلدهم.

9 - يعتقد البدائيون أن ّالطوطم إذا كان من الحيوانات المخيفة و الخطرة ، سوف يرحم أفراد القبيلة المســماة باســمه .

10 – يحمي حيوان الطوطم المنتمين إلى القبيلة و ينذرهم من المخاطر.

11- ينبّئ الطوطم أتباعه بالمستقبل و يخدمهم كقائد.

12 – غالبا ما يعتقد أفراد القبيلة الطوطمية بأنهم يرتبطون مع حيوانهم الطوطم برابطة الأصل المشترك. »[12]

أمّا الطوطمية في الميثولوجيا الطوارقية فتتجلى بشكل متكرر تعاقبي و مستمر في:

- النبات : شجرة الرتم ، و النخلة .

- الحيوان : الحية ، الخنفساء المقدسة ، الأرنب المشؤوم ، الغزال روح الصحراء وأخت بنو آدم بالرضاع ، والودان روح الجبال ، وأب القبيلة ، و الذئب جد المرابطين...

- إيدينان الجبل المسكون المغدور

هذه الميثولوجيا التى كانت بمثابة المنهل الخصب الذى استقى ابراهيم الكوني مجمل مروياته منه ؛ففي رائعته نزيف الحجر مثلا السابع الذي يفتن قابيل في "نزيف الحجر: "أنت ، يا قابيل ، تأكل الغلة وتسب الملة والصـــحراء لـــم تطهرك لأنك لم تعشقها»[13]

كما يصوّر العلاقات القائمة بين الإنسان و ما يحيط به من حيوان و نبات وجماد ؛ حيث يصعّد الكــونى هــذه العلاقة إلى أعلى المستويات ،مستوى التآخي و الحلول، فنرى روح الودّان تحل في جسد أسوف و أبيــه ، وروح الأب تحل في جسد الودّان و في أسوف.

لقد بَنى الكوني متخيّله السردي على سرّ العلاقة التى تقوم بين الشخصية المحوريـــة فـــى الروايـــة أســـوف والودّان؛حيث يشتغل المنجز السردي الروائي على العلاقات القائمة بين الإنسان ما يحيط به في الطبيعة من حيـــوان و جماد ؛ تآلفا و اختلافا .

تتنامى هذه العلاقات وتتناسل وفق محاور مختلفة يظل فيها محور إنسان/حيوان بؤرة المحكي ، إذ نجد الكـــوني يطعّم ذلك الصراع و التوافق برؤى إنسانية ، فلسفية، وصوفية ...

وتتمثل« مادة الحكاية هنا فى سر العلاقة التى تقوم بين الشخصية المحورية فى الرواية "أسوف" والودّان؛وهـــو تيس جبلى تقول لنا الكتب إنّه انقرض في أوروبامنذ بدايات القرن السابع عشرولكنه ظـــل موجـــودًا فـــى الصـــحراء الكبرى. »[14]

و يوضّح فخري الصالح في معرض حديثه عن ثنائية ابراهيم الكوني الصحراوية تلك الهالة القدسية التى يتمتـــع بها هذا الطوطم في الميثولوجيا الطوارقية حيث يقول : «ثمة غموض يحيط بهذا الحيوان الذى يقول عنه أســـوف إنـــه "روح الجبل"، فهو يعتصم بالجبل إذا طورد، وفى لحمه يكمن سر من أسرار الوجود، كما يقول شـــيوخ الصـــوفية،وتقوم بين أسوف والودّان علاقة سرية معقدة يحل فيها الودّان فى جسد أسوف ويرى فيه الأخير أباهالذى صرعه الودّان لأنـــه لم يحافظ على عهده بعدم صيده،و عندما يجزّ قابيل رأس أسوف ، و هو مصلوب على تمثـــال الكـــاهن و الـــودان ، يمتص جسد الودّان دم الإنسان ن و تهطل شآبيب المطر على جسد الصحراء العطشان».[15]

يحكي لنا الكوني أسطورة الودّان على لسان والد أسوف الذى« انتظر حتى هلّ القمر ، وحكى لـــه كيـــف أنّ الودّان هو روح الجبال ، كانت الصحراء الجبلية في قديم الزمان في حرب أبدية مع الصحراء الرملية ، وكانـــت آلهـــة السماء تنزل إلى الأرض مع الأمطار و تفصل بين الرفيقين ، و تُهدّئ من جذوة العداوة بينهما ، و ما أن تغادر الآلهـــة ساحة المعركة و تتوقف الأمطار عن الهطول حتى تشتعل الحرب بين العدوّين الخالدين .

وفي يوم غضبت الآلهة في سماواتها العليا و أنزلت العقاب على المتحاربين ؛ جمّدت الجبال في "مساك صطفت " و أوقفت تقدّم الرّمل العنيد في حدود "مساك ملّت" ، فتحايل الرمل و دخل في روح الغزلان ، و تحايلت الجبال من جهتها و دخلت في الودّان .

منذ ذلك اليوم أصبح الودان مسكون بروح الجبال»[16] .

- ومن خلال قراءتنا لمرويته"نزيف الحجر"تتجلى لنا أسطورة الودان من خلال تيمات كثيرة كتيمة النّذر ، تيمة القربان ، تيمة المخلّص/ المنقذ ، تيمة الحلول ، و سنقتصر في هذا البحث على التيمين المحوريتين في رواية نزيف الحجر: تيمة المخلص و تيمة الحلول :

- تيمة المخَلِّص : الطوطم يحمي أبناء عشيرته العشيرة ،يحرسهم، يرحمهم ويشفق عليهم،وقد تجلت تيمة المُخلّص من خلال إنقاذ "الودان المقدس" لوالد آسوف في إحدى رحلات صيده مُرغما حزينا « وحزن الأب لا يعدو أن يكون ألما مبعثه أنّ الحياة القاسية تجبره على أن يصطاد الودّان ، وهو لا يريد أن يصطاد الودّان»[17]إلا أن الودان أنقذ هذا الوالد من موت محقق لأنه يدرك تمام الإدراك أن الوالد المسكين أكرهه الجوع الذي يهدد عائلته ، فنذر بأن لا يتعرض للودان المقدس بعد هذه الحادثة التي ترويها أم أسوف قائلة :« أبوك لا يريدك أن تسفك دماء الودان لأنّه نذر نذرا من زمان ، قبل أن تولد ، كان يصطاد في سفوح جبال " آينسيس" ، فزلقت رجله و وجد نفسه معلقا بين السماء و الأرض ، يمسك بصخرة و رجلاه تتدليان في الهاوية ، فقدَ الامل في النجاة ، فانتشله نفس الودّان الذي كان يقاتله و ينوي قتله ، و أنقذه من الهلاك»[18]

لقد استفاد ابراهيم الكوني من نظريات الأنثربولوجيا ، ومن معطياتالمذهب الطوطمي وراح يوظفها توظيفا ترميزيا و يواصل استثمار أبعاده حيث يصوّر لنا كيف خلّص الودان المقدس أسوف من الهاوية ، هو نفسه الودان العظيم الذي كان يطارده ، لقد تحوّل الصيد إلى مخلّص ، فبعد المشادات العنيفة بينهما ، انطلق الودان العظيم يسحب أسوف نحو قمم الجبال ، مزقت النتوء الصخرية جسده ،و غاب عن الوعي و تدلّى جسده في الهاوية بعد أن نزف كل الماء و الدم و الرطوبة من جسده ، أيقن بالهلاك « ...سمع خطوات فوق رأسه ، هل هو وهم من أوهام الموت ؟!!! المحتضر يرى ما لا يراه الناس و يسمع ما لا يسمعه الناس ..خطوات بطيئة .. حذرة ، متردّدة .. صوت أقدام تدحرج أحجار الطريق ..هل هذا معقول ؟..هل!!! يمكن أن تتحقق المعجزة !!! مستحيل!!! ..خيالات محتضر..في مواجهته بالضبط ، انشق الأفق عن خيط رقيق من البهرة ، بهرة الفجر ، استمرّ الصمت لحظات ، أنصت مرّة أخرى علّه يسمع الخطوات الموهومة – حتى لو كانت وهما فهي تزرع الأمل في القلب – فتح عينيه ، ولم يصدّق !!!شيء خشن لامَسَ أصابعه الميتة ، قبض على "الشيء" ..حبل ، حبل الليف الخشن !! لم يصدق!!! أمسك به بكلتا يديه ، تعلّق به ، لن يتركه إلى الأبد ،سيتشبث به حتى ولو أحرقوا يديه بالنهار ، سحبه الحبل ، فأطلّ برأسه فوق القمّة ، لم يتبين شيئا في العتمة ، جسم يتحرّك أمامه و يجرّه بقوة ..هل هم الجنّ!!!؟ استمر الجسم يتحرّك ، يجرُّهُ من فم الهاوية ، لامس صدره النتوء ، فأحسّ أنّ كامل الجبال التي كانت ترقد على صدره قد انزاحت مرّة واحدة و هَوَت في ظلمات الهاوية الوحشية، البشعة .. نجا نجا نجا ، الجنيّ الذي أنقذ حياته مازال يخطو في العراء المُغطّى بالأحجار ببطء و صمت وهدوء ..حاول أن يتبيّنه في عتمة الفجر ..أغمض عينيه و فتحهما عدّة مرّات قبل أن يركّز في الشبح الصّبور رأى ملامح .. يا ربي !!! إنّه الودّان !!!

نفس الودّان !!!

ضحّيته !!! جلاّده !!! من منهما الجلاّد !!! ؟ و من منهما الإنسان!!! ؟ ومن منهما الحيوان ؟ !!!»[19]،و بهذه التساؤلات و الإدهاشات يمرّر الكوني رؤياه الخاصة و يطرح على لسان شخوصه أسئلة الحرية ، الوجود ، و الهوية ...الإنسانية

فنلاحظ ابراهيم الكوني يوسّع من فكرته ويتجه إلى التّناص وخاصّة التناص القرآني تارة ثمّ إلى توظيف التراث وخاصّة توظيف الشخصيات الإنسانية و العالمية و الدينية تارة أخرى وكلّ ذلك لترسيخ فكرة النموذج البدئي- وهو موتيف متعلق هنا بظاهرة جمالية وبلاغية هي ظاهرة التكرار- التي بنى عليها مشروعه الروائي ، « هكذا تتلاقح الأساطير المثيولوجية التراثية والوراثية والفنية ، ما يجعل الأسطرة تثقيفاً فنياً روائياً ، إذ تستحضر الشرفة الأسطورية في الفضاء الروائي لـ"نزيف الحجر" مع العتبة الأسطورية الأزلية للوجود : أسطورة الصراع الأول (قابيل وهابيل) ، وتتلاقى هاتان الأسطورتان في البنية العميقة للتكوين الروائي في تشكيل سلطان إبداعي مخترق لنرجسه الفنتازي ، لأنه يحوّل الأسطورة في متنه إلى ثقافة فنية للرواية»[20]

- تيمة الحلول :

و التى خصص لها الكوني مقطعا عنونه بـ: " التحوّل":

يوظف الكاتب فلسفته الصوفية المتمثلة في "ظاهرة حلول" أو " حلول الروح" ، أو " مبدأ وحدة الكائنات" ، ليؤكد بها فكرته الأساسية وهي حماية البيئة الحيوانية من الصيد العشوائي، فهو بذلك يدين الاعتداء، ابتداء من اعتداء البشر بعضهم على بعض وانتهاء باعتداء البشر على الحيوانات.

يقول السارد بحلول الودان في جسد أسوف : « و عن هذا التحوّل نسج الأهالي في الواحات الأساطير، روى لهم الشباب ، فقالوا إنّهم رأوا المعجزة لأوّل مرّة في حياتهم ، شاهدوا إنسانا يفلت من الأسر و يتحوّل إلى ودّان يعدو نحو الجبل ، يتقافز فوق الصخور في سرعة الريح غير عابئ بمطر الرصاص الذى ينهال عليه من كلّ جانب ، فهل رأيتم إنسانا يتحوّل إلى ودّان **!!** ؟ هل رأيتم إنسانا ينجو من رصاص الطليان و هويجري على قدمين حتى يختفي في ظلمات الجبال **!!**؟ ، الصوفيون و الحكماء في الواحاتهزوا رؤوسهم من الوُجد ، و ألقوا بالبخور في النار ، و أجمعوا ذلك وليّ من أولياء الله ...و في الليل ذهبوا إلى الزاوية و نظموا حفلة ذكر ، جذبوا فيها حتى الفجر ،إكراما للوليّ ، و فرحا بحلول الذات الإلاهية في المخلوق الأرضي البائس»[21] ، و هنا تبرز نزعة الكوني الصوفية من خلال ذلك الانفتاح علىلغة الحلم و المعجم الصوفي بتوظيفه لمصطلحات كـ : الهاوية ، الغياب ، الحلول ، البرزخ ، الروح الوجد ، القلب ، ...و يركّز على القلب باعتباره مصدر القوة والمعرفة عند المتصوّفة «و القلب هو محلّ الكشف والإلهام ، إنّه الملك المُطاع و رئيس البدن الذى قال فيه صلى الله عليه وسلّم " إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلُح الجسد كلّه و إذا فسدت فسد الجسد كلّه ؛ ألا و هي القلب"»[22]. فالقلب إذن هو مستودع التفكّر و التذّكر، ففي حادثة الهاوية كما يسميها الكوني ، يتذكّر أسوف – و هو معلّق بين السمآء والأرض- وصايا أبيه ، ذكرياته في السهول والجبال ، يتذكّر يائسا متساءلا فجأةً : أين العدالة ؟ أين الله ؟ تذكّر « عندما بلغ السابعة و قرّر الأب أن يعلّمه سورة الفاتحة سأله :

- هل تعرف أين الله؟

أشار بإصبعه إلى الأعلى ، وقال

– في السماء. ضحك الوالد حتى استلقى على قفاه ، و قال مشيرا إلى صدره :

الله هنا و ليس في السماء. ثم تمتم كأنه يخاطب نفسه :

- في القلب ، معنا ، فينا.

ثمّ رفع إليه نظرة غريبة كأنّه يعود من رحلة في الملكوت البعيد ، من غياب طويل ، وهمس : - يكفي أن تجيب إذا سُئلت أنه في القلب ، إيّاك أن تخطئَ في القلب.

لم يستطع يومها أن يفهم هذه اللغة ؛ كيف يكون الله الكبير، العظيم ، القادر على كل شيء في القلب الصغير المسجون في قفص هذا الصدر؟ و ها هو يحسّ مشنوقا في رأس الصخرة أنّ المرحوم على حق ، فمن أين يستمدّ قوّته

على الصمود إن لم يكن القلب ؟ لولا تلك القوّة الخفية في القلب ، لولا الله في القلب لسقط من زمان في هاوية الظلمات التى تشدّه من رجليه إلى الأسفل »[23]فالعقل إذن قاصر على إدراك وفهم ذلك ، و« من هنا فإنّ المبدأ الأساسي الذى يقوم عليه التصوّف هو أنّ العاطفة لا العقل هي السبيل للوصول إلى الله »[24]. إلى معرفة الله .

و بعد أن أنقذ الودّان أسوف من الهاوية و من الموت المحقق ، « توقّف الودّان العظيم عن المشي رآه يرفـــع رأسه الضخم المتوّج بالقرنين الخرافيين ، و يواجه ذلك الغامض الذى يبشّر بالفجر البصيص الباهت الذى يحلّ فيـــه دائما سر الحياة ، و فجأةً، في عتمة هذا البصيص الربّاني ، رآى أباه في عينيّ الودّان الصــبّور ، العظــيم ، رأى عيني الوالد الحزينتين ، الطيبتين ، اللتين لم تفهما لماذا يؤذي الإنسان أخاه الإنسان !!؟ ففرَّ إلى الصحراء و اختـــار أن يموت وحيدا في الجبال دون أن يعود إليهم

العينان اللتان اختارتا الحرية القاسية دون أن تعرفا لماذا .

في مكانه المكسو بالأحجار الشرهة ، صرخ بصوتٍ مخنوق كأنّه يناجي ربّه :

- أنت أبي ، لقد عرفتك انتظر أريد أن أخبرك.

أُغميَ عليه »[25].

ففي هذا المقطع تتمركز المتاهة الأسطورية و استطالات السرد الميثولوجي و المونولوج ، حيث نجــد أســوف يحاور نفسه، يُساءل نفسه ، يجيب نفسه ؛ إنّه يغيب في ذاته ، في أرجاء و زوايا و حنايا نفسه و ينقطع عن ما حوله ، ينفصل عن الزمان و المكان وهنا تتجلى النزعة الصوفية ذلك أنّ«الشرط الأساسي في المعرفة الصوفية هــو انســحاب الإنسان إلى أعماق ذاته ، وقطع كل صلة مع العالم الخارجي إلى أن يزول الوعي بهذا العالم ، و يزول الوعي بالــذات و زوال هذا الوعي هو ما تسميه الصوفية " الفناء" ».[26] الفناء من أجل المعرفة ، من أجل معرفة الله ، من أجل الحقيقة و لعلّ «هاجس الكوني الكبير الذي استلهمه من الصحراء هو ثالوث يرف على فضاء كل رواية يكتبهـــا، بــل تحـــاول كتابته عن الصحراء أن تفك لغز هذا "الهاجس" المكنون في أعماقه. والمتجذر فيه منذ طفولته التي عاشها فـــي رحابـــة الصحراء. وهو القائل " هذا الثالوث المقدس الذي قدمته لي الطبيعة الصحراوية على سبيل الإهداء صار لي هاجسا من ذلك اليوم: الله، وحدة الكائنات والحرية، وكل رواياتي التي تزيد على أربع عشرة رواية وثماني مجاميع قصصية هـــي محاولة للتعبير عن هذا السر المكنون: الله، وحدة الكائنات، الحرية ».[27] ، فالكوني يقصد هنا بـــ" وحدة الكائنات" تلـــك العلاقة المتكاملة بين كل كائنات الطبيعة من إنسان و حيوان ونبات و حتى جماد إيمانا منه أنّ الله لم يخلق الكون كمـــا هو عبثا أو صدفة ، إنّما الكون مبني على التنظيم و الانسجام ، فكل خلل يسببه الانسان سيؤدي إلى خلل في هذا النظام الكوني البديع والذى يؤدي بدوره إلى الكوارث الطبيعية و البيئية .

خاتمة:

ترسم الرواية في تطورها عددا من المسارات الفكرية والرؤيوية تجسدت في محاور يمكن أن نوجزها في مـــا يلي :

1 - تعتبر رائعة " نزيف الحجر" نموذجا للرواية الفكرية و المكانية ؛ فهي تحوي قيَما فكرية وفلسفية وصوفية تـــداخلت مع الأسطورة، في بحثها عن ماهية الحرية ومفهومها، وعن تحرير الإنسان من كل القيـــود عـــن طريـــق فلســـفته الصوفية معتبرا أن العيش في تلك الصحراء النائية بحرارتها وقسوتها نوع من تطهير الإنسان من ذنوبه عن طريق تعذيب جسده ليصل إلى الصفاء والنقاء الروحي المنشود عند الصوفية.

2- البحث عن الحرية عن طريق العزلة في الصحراء ، وقد جسّدها الراعي وزوجته وابنهما أسوف.

3- الحفاظ على البيئة الصحراوية (الحيوانية خصوصا) التي تمثلت في أسطورة إتحاد الإنسان مع عناصـــر الطبيعـــة

ومع العالم الحيواني الطبيعي والذى جسّده حيوان الودان والغزال ، فنجد الكوني هنا يستثمر منجزات الفكر الفرويدي الذى يكرّس المذهب الطوطمي لتفسير منشأ الحضارة و الأخلاق ، فبتوظيف موتيفات الطوطمية كحيوان الودّان و الغزال ، و موتيف "الحلول" أو "تناسخ الأرواح" استطاع الروائي أن يعبّر عن تمرّده و رفضه و تحريمه بل و تجريمه لذلك التخريب الوحشي الذى تتعرض له الطبيعة الصحراوية من إبادة لقطعان الغزلان والودان .

4- مبدأ الصراع الأزلي بين البشر و يتجسّد ذلك من خلال أسطورة قابيل تبني سياقها في "نزيف الحجر" بتحويل بناء الصراع الأخوي الإنساني إلى انتهاك بناء الأخوة بين الحيوان والإنسان في المجتمع الطوارقي الذي يتأسس تراثه على قوانين تحريم قتل الحيوان وسرمدة القاتل باللعنة والإثم

طرح الكوني إشكالية هامة، أنهكت المبدع العربي عامة والكوني خاصة وهي إشكالية البحث عن الذات، في خضم هذا التغير السافر الذي طرأ على الأوطان وعلى البشر وعلى الكائنات والطبيعة من خلال ضرورة احترام كرامة الطارقي وحريته وكينونته وخصوصيته، هذا الرجل المتخفي وراء لثامه حاملا معه أسرار الصحراء التي لا ينبغي أن يطأها غيره..

الإحالات :

1-عوني الفاعوري، تجليات الواقع و الأسطورة في النتاج الروائي لابراهيم الكوني ، وزارة الثقافة ،دط ، عمان ،الأردن، 2002، ص67.

[2] -ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، دار التنوير للطباعة والنشر، ط3، بيروت ، 1992 ، ص38

[3] - عوني الفاعوري، تجليات الواقع و الأسطورة في النتاج الروائي لابراهيم الكوني ،ص69

[4] - ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ص147.

[5] - محمد عبد المعين خان ، الأساطير العربية قبل الإسلام ،مطبعة الحنة للتأليف والترجمة والنشر ، د،ط ، القاهرة ، مصر1937، ص57.

[6] - عباس يونس العنزي ، الطوطمية - محاولة للفهم والتفسير،الحوار المتمدن،ع 3435 ، 23/ 7 / 2011، edabas@yahoo.com

[7] - محمد عبد المعين خان ، الأساطير العربية قبل الإسلام ، ص57 .

8-خالد زغريت، جماليات ميثيولوجيا الصحراء في رواية«نزيف الحجر» لإبراهيم الكوني، الدستور، ع17461 ، مارس ، 2011 تاريخ الاطلاع 24 أوت2016م ،ص8.

[9] - عباس يونس العنزي ، الطوطمية - محاولة للفهم والتفسير

[10] - المرجع نفسه .

[11] - هجيرة لعور ، أسطورة التكوين : المظاهر و التجليات – دراسة في روايات ابراهيم الكوني ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ، إشراف صالح ولعة ، قسم اللغة العربية ، جامعة باجي مختار ، عنابة ، 2015/2014 ، ص153.

12-سيجموند فرويد ، الطوطم والتابو ، تر بوعلي ياسين ، دارالحور للنشر والتوزيع ، ط1 ،اللاذقية سوريا، 1983،ص25.

13-خالد زغريت، جماليات ميثيولوجيا الصحراء في رواية«نزيف الحجر» لإبراهيم الكوني

14- فخري الصالح ، في الرواية العربية الجديدة ، منشورات الاختلاف ، ط1 ، الجزائر ، 2009 ، ص148.

15-المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

16- ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ص26.

17-ابراهيم الكوني، نزيف الحجر، ص46.

18-المرجع نفسه ، ص49 .

19-ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، ص70.

20- خالد زغريت ، جماليات ميثيولوجيا الصحراء في رواية«نزيف الحجر» لإبراهيم الكوني.

21-ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر، ص 83،84.

22- عبد الحميد هيمة ، الخطاب الصوفي و آليات التأويل – قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، دار الأمير خالد ، د،ط ، الجزائر ، 2014 ، ص98.

23-ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر، ص68.

24-عبد الحميد هيمة ، الخطاب الصوفي و آليات التأويل – قراءة في الشعر المغاربي المعاصر ، ص102.

25- ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر، ص80 .

26- عبد الحميد هيمة ، الخطاب الصوفي و آليات التأويل – قراءة في الشعر المغاربي المعاصر ، ص99.

27- هجيرة لعور ، أسطورة التكوين : المظاهر و التجليات – دراسة في روايات ابراهيم الكوني ، ص19.

قائمة المصادر و المراجع :

-ابراهيم الكوني ، نزيف الحجر ، دار التنوير للطباعة والنشر، ط3، بيروت ، 1992

- فخري الصالح ، في الرواية العربية الجديدة ، منشورات الاختلاف ، ط1 ، الجزائر ، 2009

- خالد زغريت، جماليات ميثيولوجيا الصحراء في رواية«نزيف الحجر» لإبراهيم الكوني، الدستور، ع17461 ، مارس ، 2011 تاريخ الاطلاع 24 أوت2016م

- سيجموند فرويد ، الطوطم و التابو، تر بوعلي ياسين ، دارالحور للنشر والتوزيع ، ط1 ،اللاذقية سوريا، 1983.

- عبد الحميد هيمة ، الخطاب الصوفي و آليات التأويل – قراءة في الشعر المغاربي المعاصر، دار الأمير خالد ، د،ط ، الجزائر ، 2014

- عوني الفاعوري، تجليات الواقع و الأسطورة في النتاج الروائي لابراهيم الكوني ، وزارة الثقافة ،دط ، عمان ،الأردن، 2002

- محمد عبد المعين خان ، الأساطير العربية قبل الإسلام ،مطبعة الحنة للتأليف والترجمة والنشر ، د،ط ، القاهرة ، مصر، 1937

- عباس يونس العنزي ، الطوطمية - محاولة للفهم والتفسير،الحوار المتمدن،ع 3435 ، 23/ 7 / 2011، edabas@yahoo.com

- هجيرة لعور ، أسطورة التكوين : المظاهر و التجليات – دراسة في روايات ابراهيم الكوني ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ، إشراف صالح ولعة ، قسم اللغة العربية ، جامعة باجي مختار ، عنابة ، 2015/2014.